اليوم خمر وغدًا أمر

كانت الشمس الغاربة ترسل شعاعها على رأس دمّون، ذلك الجبل اليمنى الشامخ، فتصبغه بألوان عجيبة من حمرة إلى صفرة إلى زرقة، تتراقص عليه كأنما هو ملعب من ملاعب الجان تنشر فوقه حللها الشفافة الخفية.

وجلس امرؤ القيس وحده فى ذلك المساء أمام بيته على صخرة اتخذها مقعدًا، وجعل ينظر إلى الجبل الشاهق وهو ممتلئ القلب بالكآبة، فوجد خياله يذهب برغمه إلى الخيمة التى لاحت له منذ أيام وهو فوق الربوة، وإلى المرأة التى رآها عند بابها تمخض اللبن، فتحرك متضجرًا يريد أن يصرف عن ذهنه تلك الصورة فلم يقدر، فقام ذاهبًا إلى بيته وملأ كأسًا من زقٍ الخمر ليغرق فيها همه، كما كان يفعل كلما ساورته الشجون ولجّت به.

وفيما هو خارج من البيت وقعت عينه على صديقه عمرو بن قَمِيَّة يقصد نحوه بخطى مترددة، وقد ارتسم على وجهه الشوق والإشفاق؛ فنظر نحوه فى حيرة، وأحس بكراهة شديدة لمقدمه، لأنه أصبح لا يستريح إلى مجلس صديق، ولا يهتز إلى طرب، ولا تنبسط نفسه إلى سمر، بل كان يطلب الوحدة، ويباعد أصحابه ليخلو إلى نفسه ويناجيها بما يضطرم فيها من وجده وشجنه.

غير أنه ملك نفسه ووقف ينتظر صديقه وهو يتكلف الابتسام، وقال بعض ألفاظ الترحيب خشية من إيلام ضيفه الوافد عليه.

وجلس الصديقان بعد تحية قصيرة، وعاودهما الصمت، فقد كان امرؤ القيس قطب مجالس أصدقائه، ومعين سمرهم وطربهم، فكان إذا صمت وأطرق لم يجر فى المجلس حديث.

وأراد امرؤ القيس أن يحيى مجلس صديقه بشىء غير الحديث فوضع كأسه على الصخرة التى كانا جالسين عليها وقام إلى الخيمة فأحضر زق الخمر وحمل معه كأسًا من النحاس ملأها لصاحبه، ثم أتى بآلة النرد، وعلق مصباحًا فى عمود الخيمة، ثم عاد وجلس مع صديقه يلاعبه ليتسليا على الشراب، ثم طلع البدر وهب النسيم رُخاءً، فأخذت أشجان امرئ القيس تنقشع عنه شيئًا بعد شىء مع توالى اللعب والشراب، حتى بدأ يضاحك صديقه ويمازحه ويتغنى له ببعض شعره كلما انتصر عليه فى دَسْت من اللعب.

وفيما كان الصاحبان منصرفين إلى لهوهما، وقد ظهر عليهما أثر الخمر، أقبل رجل يسير مسرعًا، فالتفتا نحوه فرأياه يقصد نحوهما، فقام امرؤ القيس وذهب إليه لينظر من يكون، وما كاد يتبينه فى ضوء القمر حتى رفع يديه وصاح صيحة عالية وهو يضمه إلى صدره قائلا: «عامر!».

فقال الرجل وهو يضمه بعطف وحزن: «ولدى! أبا وهب!» وكان ذلك الرجل عامرًا أبا فاطمة وابن عم أبيه.

ووقفا لحظة قصيرة ينظـر أحدهما إلى الآخر فى صمت، وأدرك امرؤ القيس من نظرة صاحبه أنه يريد أن يحدثه، فمال به إلى ناحية وقال له يريد أن يفتح باب الحديث: «وكيف عرفت مكانى؟».

فقال عامر بصوت متردد: «أخبرنى أبو عنبسـة. أخبرنى جابر ابن يحيى الثعلبى».

فسرت رعدة خفيفة فى جسـم امرئ القيس عند سماع اسم ذلك الرجـل، وتمثلت له صـورة فاطمة وهى واقفة أمامـه منذ أيام فى الخيمـة، تناديه وهى ذاهله مشـدوهة. وكاد يسـأل أباها عنها، وكيف تركها؛ ولكنه ملك نفسـه فصـرف الحديث قائلا: «لكأنى بك تحمل إلى قولا».

فقـال عامر بصـوت ضعيف: «نعـم، جئت إليك بنبـأ هائل. تقوّيا ولدى، وتعزَّ عن أبيك».

ثم أطرق حزينًا وصمت.

جالـت الأفكار سـريعة متدافعة فـى رأس امـرئ القيس عند سماعـه قول الرجل، ولكنه لم يحرك سـاكنًا، بل نظر إليه قائلا: «إذًا قد مات حجر؟».

فهز عامر رأسـه بحزن وقال بصـوت ضعيف: «بل قتل حجر. قتل الملك حجر».

فأخذ امرؤ القيس بيده وذهب به إلى صخرة بعيدة فجلس عليها وأجلسه إلى جانبه وقال له: «أخبرنى عمن قتله، وكيف قتل».

وكان يتكلم بصوت هادئ لا يظهر فيه أثر من الحزن أو الاضطراب.

فنظر إليه عامر فى كثير من الدهشة والإعجاب، ثم أخذ يقص عليه أخبار أبيه فى بنى أسد وثورتهم عليه، وإيقاعه بهم، ثم أخبره بحديث نفيهم إلى تهامة وما أعقب ذلك من اضطراره إلى استرجاعهم عند ما بلغه خبر هزيمة أبيه الملك الحارث، وإخراجه من الحيرة، وقتل بنى آكل المرار، وكان امرؤ القيس يسمع كل ذلك صامتًا كأنه يسمع قصة رجل من العرب غير أبيه.

ومضى الرجل فى حديثه فقال: «لقد عدت إلى أبيك عندما بلغنى اشتداد الثورة عليه. وقد حاولت جهدى أن أقيم أمره بمساعدة ذلك الصديق الوفى ربيعة».

فتحرك امرؤ القيس وقال: «ربيعة؟ وهل كان معك؟».

فقال عامر: «بقى معنا حتى قتل دون أبيك. لقد كان رجلا كريمًا».

ثم مضى فى حديثه فقال: «ذهب أبوك إلى العراق ليرى الملك الحارث قبل موته وعاد بنو أسد إلى أرضهم ولكنهم كانوا يزدادون كل يوم جرأة وتمردًا، ولم نقدر على أن نملكهم كما كان يملكهم أبوك من قبل. وذلك الشاعر الجبان عبيد بن الأبرص! ويل له! لقد جعل يحرضهم ويذمرهم ويثيرهم بعد أن كان يتذلل لأبيك ويستعطفه. ويل لهذا الثعبان الدنىء! لقد صدق أبوك؛ فما أحراه أن يقطع عضوًا فعضوًا!».

فتحـرك امـرؤ القيس عند ذلـك قلقًا، واسـتمر عامـر فقال: «ثم تسـربت أنباء موت الحارث إلى بنى أسـد، ولست أدرى كيف أتاهم ذلك النبأ سـريعًا. فقـد علموا به كأن الريح قد حملته إليهم. فـزادت جرأتهم، وأخذ كهانهم يحرضونهم على التمرد ويمنونهم بالنصـر ويطمعونهـم فـى أبيـك، حتى شمـروا لحربـه ووقفوا ينتظرون مجيئه».

فتحـرك امرؤ القيس مرة أخرى وقـال: «ويل لهم! ولكن كيف وصلـوا إلى حجـر دونكـم. أين ذهبت كنـدة؟ وأيـن كانت قيس؟ أين ذهبت تغلب؟ وأين الصنائع التى كانت تخدم الملك؟».

فقال عامر منكسـرًا: «لقد دافعنا حتى لم تبق لنا قوة. وقتل من كِنْدة معظمها، ووقفت قيس تحميه كما تحمى أبناءها، وكاد حجر ينجو لولا ذلك الذئب الجائع علباء».

فصاح امرؤ القيس: «علباء! ابن الحارث الكاهلى؟».

فقـال عامر: «نعم هو. لقـد ظل يترقب ثأره فـى صمت وتكتم حتى ظفر به».

فقال امرؤ القيس: ثأره؟ وهل قتل حجر أباه؟».

فقال عامر مطرقًا: «قتل أبوه فى سجن أبيك».

فصمت امرؤ القيس واسـتمر الرجل فقال: «واحرّ قلباه! لكأنى أرى حجرًا وهو يمسك جرحه الذى أصابه فى جنبه، يريد أن يوقف منه سـيل الدمـاء ريثما يعهـد إلى بعده. وقد أمرنى وهو يشـهق

آخر أنفاسه أن أذهب إلى أخيك الأكبر نافع، ثم إلى سائر إخوتك، فمن جزع منهم تركته ومن تحمل النبأ قويًّا حملت إليه أموال حجر وسلاحه، وطلبت منه إدراك الثأر. وهأنذا آت إليك وأنت أصغرهم بعد أن جزعوا جميعًا».

فتنفس امرؤ القيس وصمت لحظة ثم قال: «ضيَّعنى صغيرًا ثم حَمَّلنى دمه كبيرًا! لقد علمت يا أبا الجون أننى كنت فتى لا أجد لذتى إلا فى الصيد والخمر والنساء. ألا لقد آليت على نفسى لا أصيد صيدًا ولا أشرب خمرًا ولا أقرب امرأة حتى أشتفى بإدراك الثأر للملك الهمام».

فنهض عامر وهو ينظر إلى الفتى بإعجاب وعطف وقال بإجلال عميق: «أبيتَ اللعن أيها الملك الهمام!».

فقال امرؤ القيس وكأنه لم يسمع تلك التحية: «وأين السلاح؟ أين سلاح أبى وأمواله؟».

فقال عامر: «قد نزلت بأجمالى كلها هناك وراء هذا الوادى».

وأشار إلى واد فى الطرف الأقصى من جبل دمّون. فقام امرؤ القيس وذهب يسير فى بطء والرجل يمشى وراءه حتى بلغا الخيمة، وكان عمرو بن قمية لا يزال هناك فى انتظار عودتهما إليه، فلما بلغاه أراد أن يتنحى ويستأذن فى الذهاب، ولكن امرأ القيس اقترب منه باسمًا وقال له: «هلم إلى دستك فإننا لم نفرغ بعد منه».

فعاد عمـرو إلى مكانه، وجلس امرؤ القيس يلاعبه حتى انتهى الدسـت، فقـام مسـتأذنًا وقال لامـرئ القيس: «نـراك بخير فى الغداة».!

فنظر إليه امرؤ القيس صامتًا لحظة، ثم قال بهدوء: «سيكون لنا فى الغد شأن آخر يا عمرو».

فاتجه عمرو إليه كالمستفهم، واسـتمر امرؤ القيس فقال: «أعدَّ سيفك ورمحك ودروعك يا عمرو، لقد كنا إلى اليوم نلعب، ونشرب، ولكنا بعد اليوم نجدُّ ونضرب، فاليوم خمر، وغدًا أمر».

فلـم يفهم عمرو معنى قوله، وسـأله قائـلا: «أى أنباء حملت إليك؟».

فقال امرؤ القيس هادئًا: «قتل حجر. قتل الملك حجر».

فارتـاح عمرو، وارتـد إلى الوراء صائحًـا: «وكيف لم تخبرنى بذلك ابتداءً؟».

فتقـدم امرؤ القيس نحـوه ووضع يده على كتفـه مهدئًا وقال: «ما كنت لأفسد عليك دستك. هدِّئ من رَوعك، فليس يجدينا الذعر».

فرفع عمرو رأسه بكبرياء وعزيمة، وقال متأثرًا: «سيكون ثأرنا هائلا» وأطرق لحظة فى صمت ثم مضى مسرعًا نحو منازله.

فأمسـك امرؤ القيس بيد عامر، ومضى بـه إلى خيمته، فجلس ووضع رأسه بين يديه ساعة فى صمت وحزن، وعامر مطرق إلى جواره يرسم على الأرض خطوطًا بعصاه. فلما رفع امرؤ القيس رأسه، قال:

«لقـد ظننت يا أبا الجون أنى نسـيته. ظننت أنى كرهته وانصرف قلبى عنه، ولكنى أحس لمنعاه نارًا فى قلبى، وا أبى! وا ملكاه!».

ونظـر إلى الجبل العالى الذى كان يقطع صفحـة الفضاء فى ضوء القمر السـاطع وقال كأنه يخاطبـه: «لقد هلك حجر يا دمّون! متى يطلـع الصباح لأشـفى فؤادى؟ إن قلبـى يتحرَّق مـن وجدى عليه يا دمون!».

ثم جعل يقول متغنيًا فى حزن:

تطاول الليل علينا دمون دمـون إنا معشر يمانون
وإننا لقـومـنا محبـون

ونظـر إلى عامر بعد أن انتهى من ترنمه الحزين وقال: «هلم إلى مناخ الإبل يـا عامر. هلم إلى الخلاء فهو أرفق بى» وقام خارجًا إلى الفضـاء الذى غمره ضوء القمر وصاحبه يسـير وراءه. ولما صار عند بـاب الخيمة عرج على النرد الذى كان يلعب به مع صديقه فضربه بقدمه فألقاه على الأرض مكفوءًا، ثم جرد سـيفه وضرب زق الخمر فأسال ما بقى فيه على الرمال، ثم سار فى صمت نحو مناخ الإبل.

* * *